تلمسان " التاريخ – المجتمع – العمران " في كتابات المستشرق الفرنسي ألفريد بيل (Alfred Bel 1873–1945)

Tlemcen "History - Society - Urbanism" in the writings of the French orientalist Alfred Bel (1873-1945)

ط.د بخاخ سعدون (*)،
[1] جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان، saadoun.bekhakh@univ-tlemcen.dz

تاريخ الاستلام: 2021-08-28 تاريخ القبول: 2021-10-09

ملخص:

تعددت أسماء المستشرقين الفرنسيين في الجزائر خلال فترة الاحتلال، كما تعددت اهتماماتهم البحثية، حيث شكل الاستشراق الفرنسي خلال هذه الفترة أحد أهم آليات اختراق المجتمع الجزائري، وضمن هذا المنحى نسعى في هذا المقال الى الوقوف على أعمال أحد أهم المستشرقين الفرنسيين وهو ألفريد بيل (1873–1945) الذي اشتغل على تلمسان كثيرا، خصوصا وأنه أقام بها مدة 40 عام، حيث لامست كتاباته كل ما يتعلق بالمجتمع التلمساني من تاريخ وآثار وعادات وتقاليد.

الكلمات الدالة: الاستشراق، تلمسان، ألفريد بيل، الكتابات الفرنسية، المجتمع.

Abstract:

This article helps to retrace the scientific production of the French orientalist Alfred Bell (1873-1945), who is considered one of the most

(*) المؤلف المرسل: ط.د سعدون بخاخ: البريد الإلكتروني saadoun.bekhakh@univ–tlemcen.dz

المنارة للاستشارات

prominent French orientalists in Algeria during the period of the French occupation.

His writings and scholarly articles have focused on the city of Tlemcen and its surroundings, in which he resided for forty years. His research interests are varied: history, archeology, society and customs.

Keywords: orientalism; Tlemcen; Alfred Bell; society; french writings.

1. مقدمة:

شكل الاستشراق الفرنسي في الجزائر طيلة فترة الاحتلال أحد أهم آليات اكتشاف المجتمع الجزائري واختراق بنيته، أين بذلت مجهودات فردية وجماعية لعشرات المستشرقين على مستوى المؤسسات، من خلال عقد مختلف المؤتمرات والملتقيات، وبمباركة الإدارة الفرنسية التي سهلت لهم أعمالهم، حيث كلّلت هذه الجهود بنشر مئات الأعمال التي تعكس صورة المجتمع الجزائري.

لقد خلف الاستشراق الفرنسي في الجزائر قائمة أسماء طويلة يطول ذكرها، تنوعت مجالات اهتمامها فهناك من اهتم بالمرأة وحياتها اليومية، وهناك من اهتم باللهجات على نطاقات جغرافية متنوعة، ومنهم درس الحياة الدينية وما يرتبط بها من شعائر وممارسات، زيادة على اختصاص بعضهم في رصد عادات وتقاليد الجزائريين بصفة عامة أو في نطاق جغرافي معين، ضمن ما يعرف بالتاريخ المونوغرافي، وغيرها من مجالات البحث[1].

إنه على الرغم من عدم خلو هذه الكتابات من تشويه ومغالطات ومبالغات، إلا أنها تبقى مصادر لا غنى عنها للباحثين تحتاج لقراءات نقدية من أجل الاستفادة منها وتوظيفها في سياقاتها، ولا سيما في ظل غياب كتابات محلية معاصرة لها تتوافق أو تتعارض مع ما جاء فيها.

المنارة للاستشارات

وبما أنه يتعذر علينا في هذا المقال تتبع سيرة وإنتاج عدد من المستشرقين، فإننا سنحاول الوقوف على أحد الأسماء البارزة في حقل الاستشراق الفرنسي بالجزائر وهو ألفريد بيل **Alfred Bel**، الذي أقام 40 عاما في الجزائر وتحديدا في مدينة تلمسان، تلك المدينة التي استهوته وراح يكتب عن مجتمعها، وآثارها، وتاريخها لتشمل كتاباته تلمسان المدينة وتلمسان الإقليم التابعة للقطاع الوهراني، ومن خلال هذه الصفحات نسعى للإجابة عن ثلاث تساؤلات رئيسية ترتبط بألفريد بيل **Alfred Bel** وكتاباته حول تلمسان، على النحو التالي: ما مدى حضور تلمسان في كتابات ألفريد بيل **Alfred Bel** ؟، ماهي الجوانب التي اهتم بها ؟، وماهي القيمة المعرفية والتاريخية التي يقدمها لنا ضمن هاته الكتابات؟.

1. تلمسان في الكتابات الفرنسية

كغيرها من المدن الجزائرية نالت تلمسان اهتمام الكثير من الباحثين الفرنسيين خلال فترة الاحتلال حيث اهتم هؤلاء بمعالمها المختلفة وبتاريخها وحضارتها، يأتي هذا الاهتمام لعدة اعتبارات أهمها الماضي العريق لتلمسان التي كانت حاضرة علمية، وعاصمة سياسية للدولة الزيانية على امتداد ثلاثة قرون، زيادة على هذا فقد كانت بها إحدى المدارس الشرعية التي ضمت عددا من المستعربين والمستشرقين الفرنسيين أمثال: ألفريد بيل **Alfred Bel** ادموند دوتي **Edmond Doutté**، ادموند ديستان **Edmond Destaing** رينيه باصيه **René Basset**، جورج مارسيه **Georges Marçais**،...و عليه كانت تلمسان حاضرة في أبحاثهم الميدانية وفي مقالاتهم، ولاشك أن الإدارة الفرنسية قد قدمت تسهيلات لهؤلاء الباحثين قصد تكييف هذه البحوث مع مشاريعها المأمولة.

تعددت الأبحاث حول تلمسان فقد اشتملت على تاريخها عبر العصور، الطابع العمراني لمعالمها الحضارية، ملامح الحياة الثقافية والدينية، عادات وتقاليد المجتمع التلمساني وغيرها من حقول البحث، حيث ساهم هذا التنوع البحثي في كثرة المؤلفات الأمر الذي يجعل حصر هذه الأبحاث يحتاج إلى وقت وجهد، الأمر الذي تكفل به أحد الأساتذة

المنارة للاستشارات

الفرنسيين وهو ايميل جانييه (**Emile Janier**)، حيث أقدم على جمع الأعمال العلمية المنشورة حول تلمسان ونواحيها في مقال نشره في المجلة الإفريقية تحت عنوان **ببليوغرافيا الأعمال المنشورة حول تلمسان ونواحيها**[2].

بعد اطلاعنا على هذا المقال اتضح لنا الاهتمام المبكر بتلمسان، حيث يرجع تاريخ بداية الاهتمام إلى عام 1836م (**مع العلم أن رحلة توماس شو تمت ترجمتها عام 1830م وفيها جزء مخصص لتلمسان**)، في حين كان آخر تاريخ للأعمال المنشورة في المقال حول تلمسان عام 1948م، حيث تنوعت الأعمال المنشورة بين كتب ومقالات في مختلف المجلات، زيادة على أعمال الملتقيات والمؤتمرات، وللإشارة فإن صاحب المقال اجتهد في توضيح حضور تلمسان ضمن هذه الأعمال، فهناك العناوين التي تتعلق بتلمسان مباشرة وهناك الأعمال التي تحدثت عن القطاع الوهراني وتلمسان جزء منه، فيحدد لنا صاحب المقال الصفحات المرتبطة بها، وهناك أيضا الأعمال التي تحدثت عن الجزائر بصفة عامة وتلمسان ضمنها، والأمر نفسه لبعض المقالات وأعمال الملتقيات.

نظرا لكثرة الأعمال كما أشرنا فقد تعذر على صاحب المقال ترتيبها كرونولوجيا وإنما اكتفى بتصنيفها ضمن المجالات أو الحقول التي تنتمي لها، وخلافا لما سار عليه المؤلف تفاديا منا للتكرار، فإننا سوف نقوم بتصنيف هذه البيبليوغرافيا وفقا لطبيعتها (**كتب، ترجمة لكتب الرحلات والتراجم، مقالات، أعمال ملتقيات ومؤتمرات**) على النحو التالي:

1/ الكتب: 69.

1.1/ كتب التراجم والرحلات المترجمة: 31.

2/ أعمال الملتقيات والمؤتمرات: **35**

3/ مقالات المجلات والنشريات:

1.3/ المجلة الإفريقية: 30.

2.3/ المجلة الأسيوية: 10.

المنارة للاستشارات

3.3/ مجلة إفريقيا الفرنسية: 02.

4.3/ المجلة الجغرافية المغربية: 01.

5.3/ نشرية الجمعية الجغرافية لوهران: 42.

6.3/ النشرية الأثرية: 10.

7.3/ نشرية الجمعية الفرنسية لما قبل التاريخ: 02.

8.3/ مجلات ونشريات أخرى: 32.

4/ التقارير: 04.

5/ دائرة معارف الاسلام 02.

وبنفس الطريقة أعاد الأستاذ إيميل جانييه **Emile Janier** نشر مقال آخر في العدد 95 من المجلة الإفريقية تحت عنوان: **ملحق حول البيبليوغرافيا المنشورة حول تلمسان ونواحيها** وهكذا يتضح لنا جهده في جرد كل الكتابات المتعلقة بتلمسان في تلك الفترة.

2. ألفريد بيل **Alfred Bel –** السيرة والإنتاج العلمي–

ولد ألفريد بيل في ضاحية سالين بفرنسا وهناك زاول تعلميه الابتدائي مبرزا تفوقه، ولما بلغ سن السابعة عشر تحصل على شهادة البكالوريا في شعبة العلوم لينتقل بعدها إلى الجزائر ومع صغر سنه اشتغل بيل **Bel** معيدا في ابتدائية بالبليدة، ليشد رحاله بعدها إلى احدى ثانويات وهران، والتي مكث بها مدة 5 سنوات[3].

أشرف ألفريد بيل **Alfred Bel** على إدارة مدرسة تلمسان ثلاث مرات منقطعة مدة ثلاثين عام المرة الأولى ما بين عامي 1905-1914، المرة الثانية ما بين 1916-1935، والمرة الثالثة ما بين 1939-1940، كما ساهم في أنشطة متحف الفنون بنفس المدينة[4].

المنارة للاستشارات

إن الملاحظ لما أنتجه ألفريد بيل **Alfred Bel** من أعمال يقف على تنوع اهتماماته، فقد كتب عن التاريخ والآثار كما كتب عن الإسلام والحياة الدينية في شمال إفريقيا، زيادة على اهتمامه بالعادات والتقاليد، ولم تقتصر أبحاثه على الجزائر خاصة وتلمسان عامة، بل إنها امتدت إلى المغرب بحكم إقامته هناك مدة عامين ونصف، حيث اهتم بالحرف والصنائع التقليدية، كما اهتم بخزائن المخطوطات، ووقف على كثير من المعالم الأثرية التي حاول شرح النقوشات المكتوبة فيها[5].

ولا شك أن تنوع أعماله راجع الى تنوع ثقافته على اعتبار أنه مستشرق، زيادة على احتكاكه بالمستشرقين المعاصرين له والقريبين منه في تلمسان، وقد توفي بيل في 18 فيفري 1945 بمكناس المغربية تاركا وراءه إنتاجا علميا وفيرا[6]، فبرجوعنا إلى ببليوغرافيا أعماله التي كتبها الأستاذ ايميل جانييه **Emile Janier** في المجلة الإفريقية[7] أحصينا له 101 عملا تتوزع على: 12 كتاب، 63 مقالا سواء نشرت في مجلات أو كانت ورقات علمية شارك بها في ملتقيات ومؤتمرات، 25 تقرير ببليوغرافي، 21 دراسة في دائرة المعارف الإسلامية.

أما بخصوص أعماله المتعلقة بتلمسان فقد بلغت 36 عملا بين كتب ومقالات ناهيك عن الدراسات التي تحمل في طياتها صفحات عن تلمسان، وهذا يعني أن أعماله حول تلمسان تتجاوز نسبة 30 **%** من أعماله الكاملة، وسنقوم باستعراض نماذج من أعماله وفق ثلاث محاور رئيسية: **التاريخ – المجتمع – العمران.**

3. تاريخ تلمسان في كتابات ألفريد بيل (Alfred Bel)

1/ التاريخ

1.1/ بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد

أولى المستشرقون الفرنسيون اهتماما كبيرا بالمخطوطات الجزائرية تراوح بين الترجمة والتحقيق، حيث قادهم هذا الاهتمام إلى البحث والاستيلاء عليها بمختلف الطرق، وكثيرا ما كانت هذه المخطوطات تختفي كما هو الحال مع مخطوط **النبذة المحتاجة في أخبار صنهاجة**

المنارة للاستشارات

لابن حماد الصنهاجي، أين قام المستشرق **شيربونو**[8] **Charbonneau** باقتباس نصوص منه ونشرها في المجلة الأسيوية، إلا أنه اعتمد على نسخة وحيدة تعتبر في حكم الضياع بما أنه لم يرجعها إلى أصحابها، وعليه فان جميع الدراسات أصبحت ترجع لما نشره وفي مجال ترجمة هذه المخطوطات قام **ادريان بيربروجر Adrien Berbrugger** بترجمة رحلة العياشي ورحلة الدرعي المغربيين، وقام ديسلان **De Slan** بترجمة مقدمة وتاريخ ابن خلدون[9].

يعد كتاب بغية الرواد أحد أركان التاريخ الزياني إضافة إلى كتاب العبر، وكتاب نظم الدر والعقيان، على اعتبار أن مؤلفي هذه الكتب كانوا شهودا على عصرهم، مدونين للأحداث الواقعة فيه، وتظهر قيمة كتاب بغية الرواد لاعتماد صاحبه بحكم منصبه ككاتب في البلاط الزياني على الوثائق الرسمية والمعاهدات، زيادة على قربه من رجال الدولة صانعي الحدث[10].

لقي بغية الرواد اهتمام المستشرق **ألفريد بيل Alfred Bel**، فقد أقدم على تحقيق وترجمة الجزء الأول الى اللغة الفرنسية عام 1903م، معتمدا على5 نسخ مختلفة من حيث الخط، وعدد الأوراق والمقاس، وتاريخ النسخ[11].

وفي عام 1911 نشر بيل الجزء الثاني من بغية الرواد بالتعاون مع الأستاذ غوثي بوعلي الذي كان مدرسا بالجامع الأعظم في تلمسان وكذا في المدرسة الشرعية[12].

إن اعتماد ألفريد بيل **Alfred Bel** على عدة النسخ يعكس جهده في هذا العمل وتماشيه مع أحد أهم شروط التحقيق العلمي المتمثل في مقابلة النسخ، غير أن عمله لم يخل من هفوات وأخطاء أشار إليها الأستاذ عبد الحميد حاجيات الذي أقدم على إعادة تحقيق بغية الرواد معتمدا علة 6 نسخ لم يعتمد عليها ألفريد بيل **Alfred Bel**، ومن هذه الهفوات اعتماده على نسخة القاضي شعيب كنسخة أساسية رغم كثرة الأخطاء فيها مقارنة بنسخة باريس التي تحمل رقم 5031، ونسخة الباشعدل محمد بن أحمد الحصار، زيادة على كثيرة الأخطاء الإملائية والنحوية التي جاءت في هذا العمل.[13]

المنارة للاستشارات

4. ألفريد بيل Alfred Bel والمجتمع التلمساني – عادات وعبادات –

1.4/ طقوس الاستمطار لدى المغاربة

يعد موضوع الاستسقاء في الجزائر، أو طلب النو كما يرد في الأدبيات الفرنسية من أهم مواضيع التراث الشعبي التي لقيت اهتمام المستشرقين الفرنسين، ففي هذا الجانب تتداخل حقول المعرفة كالتاريخ والدين والأنثروبولوجيا، وهو ما تعكسه مختلف الممارسات من منطقة إلى أخرى، وعلى الرغم من هذا الاختلاف الممارساتي إلا أن جوهرها واحد وهو طلب الغيث.

قبل حديثنا عن عمل ألفريد بيل **Alfred Bel** المتعلق بطقوس الاستمطار، نشير إلى عمل المستشرق الفرنسي الآخر جوزيف ديسبارمي **Joseph Desparmet** المهتم بالتراث الشعبي في منطقة البليدة ففي كتابه الشهير بالفوائد يدرج لنا مبحثا حول طقس بوغنجة، تلك الملعقة التي تأخذ شكل فتاة يحملها الصبية ويتجولون بها، ويمكننا تفسير حمل الصبية لهاته الدمية ببراءتهم تجاه الخالق وعدم مسؤوليتهم عن الجفاف بسبب الذنوب، زيادة على الأغاني التي تعبر عن الابتهال والضعف في قولهم:

بُوغَنْجة وجْـعه راســه يــا ربي شمَــخ راســه
السْــبُولـة عَـطْـشانا اسْـقِيهـا يـا مـولانا
بُوغنجة يشْرب الشرابْ يا رب اعطينا الضَبابْ[14]

برجوعنا إلى عمل بيل مقارنة بعمل ديسبارمي، نجده يمتاز عنه بالامتداد الجغرافي حيث رصد بيل هذه الطقوس في مناطق مختلفة من تلمسان، زيادة على رصده لهذه الظاهرة عند مختلف الفئات المجتمعية المكونة للمجتمع التلمساني، بناء على الملاحظة المباشرة وكذلك المقابلات الشخصية.

المنارة للاستشارات

استنادا الى رواية أحد اليهود الذين قابلهم ألفريد بيل **Alfred Bel**، فإن هؤلاء كانوا يقومون بالتجمع في المعبد ثم التوجه الى ضريح الربي نقاوة شيوخا وأطفالا ويقرؤون بشكل جماعي آيات من التلمود، ثم يرددون باللغة العربية ثلاث مرات ما يلي:

يا رَبي اعطِينا الشتا وحن علينا

ما تقبضْهَاشي في ذنـُوبِـنـــا

ويقومون بتكرير هذا الدعاء الى غاية أن تمطر السماء، حتى وان كان في عدة أيام كما أنهم يقومون بإعداد مأدبة عامة في المعبد بعد نزول المطر،[15] ويبدو أن هذه المأدبة كانت محل اشتراك بينهم وبين المسلمين الذين كانوا يخرجون الطعام أمام ضريح الشيخ السنوسي ليتناوله الأغنياء والفقراء والغرباء والكبار والصغار، وعند الانتهاء من الطعام يتم نشر باقي الطعام على الأرض لكي تأخذ الطيور حصتها منه.[16]

كان للسكان السود طقوسهم في هذه المناسبة، حيث كانوا يجتمعون أمام ضريح الولي سيدي بوجمعة أين يقومون بأداء أغاني ورقصات خاصة بهم، ويلتف الناس من حولهم مقدمين لهم أموالا تكون هي مصدر شراء المأدبة التي سيتم تحضيرها، وبعد إنهاء الرقصات يقوم هؤلاء السود بذبح أضحية أمام الضريح، ويتم قراءة دعاء جماعي يشرف عليه مقدم الضريح.[17]

إن قداسة الأولياء في تلمسان جعلت لهم حضورا قويا ضمن هذه الطقوس، سواء كانوا أحياء أو أموات ففي عين الحوت شمال تلمسان يتم رمي أحد الأولياء رغما عنه في عين مقدسة غير بعيدة عن القرية، وبعد هذا الاستحمام الإجباري يتم سحبه بواسطة حبل يتم تمريره تحت إبطيه.[18]

زيادة على التوجه في مواكب الى أشهر الأولياء كما هو الحال مع الولي المدعو سيدي الداودي الموجود شرق أقادير أين يقومون بإنشاد ما يلي:

يا مُولانا يا سميع الدَّعاء

نزلنا الغيث مِـن السـمَاء

المنارة للاستشارات

أنت المغيث يا رب غيثنا

ولا تحاسبنا بما فَعلنا[19]

كما شاع تداول العبارة التالية عند زيارة العديد من الأضرحة:

يا رِجـــال حنوا وجودوا

وارغبوا المولى يسقي عِباده

إلى جانب حضور الأولياء في هذه المناسبة حسيا أو معنويا، نجد حضور الأطفال والصبية كما هو الشأن في البليدة، زيادة على التشابه في الأناشيد

يـا غـنْـجـة طالـبا الـرجـا

يـا ربـي تـعـطينـا الشتـا

جلجلي يا جلجالة باش تعيش الهجالة

السبـولة عـطشانا غيـثها يا مـولانا

الزرع صفر ورقها غيثها يا من خلقـها[20]

وقبل أن نختم كلامنا عن طقوس الاستمطار بمنطقة تلمسان في كتابات ألفريد بيل **Alfred Bel** نشير إلى أن عمله هذا كان محل إشادة من الأستاذ بروبيست بيرابن **Probst Biraben**، ومنطلقا لدراسته التي تتبع فيها نفس الطقوس في الناحية الشرقية من الجزائر، وبهذا تكون الكثير من الجوانب المتعلقة بهذه الطقوس واضحة لدينا.

2.4/ ساكنة تلمسان المسلمة

نشر ألفريد بيل **Alfred Bel** مقاله هذا في مجلة الدراسات الاثنوغرافية والاجتماعية، حيث تطرق فيه الى مظاهر من الحياة الدينية والاجتماعية في مدينة تلمسان كما أرفق مقاله هذا 12 صورة مختلفة، منها ما يرتبط برقص الزنوج ومنها ما يرتبط بشوارع المدينة، ومنها ما يرتبط بالأضرحة وزيارات النسوة لها، ففي البداية يحدثنا ألفريد بيل

المنارة للاستشارات

Alfred Bel عن التركيبة العرقية المسلمة للمجتمع التلمساني، والتي حصرها في ثلاث فئات رئيسية على النحو التالي:

الحضر: وهم من يعرف كذلك بالبلدية أو المور، حيث تعتبر هذه الفئة مزيجا بين العرب والبربر، ونظرا لاندماج هذين الفئتين وتزاوجهما فإنه من الصعوبة التمييز بين العرقين، هذا ويضيف بخصوص حضر تلمسان، أن عددا كبيرا منهم تعود أصولهم الى الأندلسيين الذين فرّوا من الأندلس في القرنين 14و 15 الميلاديين واستقرّوا في عاصمة بني زيان، وهم من قام بإحضار الأغاني الغرناطية إلى تلمسان، أما من ناحية التوزيع الجغرافي فيقطن هؤلاء في الأحياء الشمالية الشرقية للمدينة[21].

الكراغلة: تشكل هذه الفئة امتدادا للتركيبة الاجتماعية في تلمسان خلال العهد العثماني حيث أنها نتاج تزاوج أفراد الحامية التركية بالنساء الأهليات، حيث يقطن هؤلاء في غرب وجنوب غرب المدينة، وبعضهم يقطن في الجزء الجنوبي الشرقي للمدينة

الزنوج: يشتغل هؤلاء عند أثرياء المدينة، وتعود أصولهم بشكل عام إلى بلاد توات أو بلاد السودان، يشير ألفريد بيل **Alfred Bel** الى أن إسلام هؤلاء تشوبه الكثير من المعتقدات الوثنية التي يعبرون عنها بطقوس سحرية ويضيف بأن هؤلاء عند ممارستهم لطقوسهم يتكلمون بلهجتهم السودانية رغم إتقانهم للغة العربية،[22] وفي ختام حديثه عن الفئات المسلمة بتلمسان يبدي ملاحظة في غاية الأهمية تتعلق بغياب العنصر الميزابي في تلمسان، على غرار تواجدهم في المدن الجزائرية الأخرى.[23]

أما فيما يتعلق بالحياة الدينية فقد ذكر جوانبا كثيرة، أهمها ذكره للصلوات اليومية وارتياد الرجال للمساجد دون النساء، ما عدا بعض العجائز اللَواتي يذهبن لصلاة يوم الجمعة وصلاة العيدين، وفي هذا الصدد يشير إلى ثلاثة مساجد رئيسية في مدينة تلمسان، أولها المسجد الكبير الذي يصلي فيه الحضر، مسجد سيدي إبراهيم الذي يصلي فيه الكراغلة،

المنارة للاستشارات

ومسجد سيدي أبو مدين في قرية العباد الذي يقصده المسلمون بشكل عام لصلاة يوم الجمعة.

من الأمور التي لاحظها ألفريد بيل **Alfred Bel** في مدينة تلمسان حرص الآباء على تربية أبناءهم تربية دينية، حيث يحرص الآباء على تعليم أبنائهم الصلاة عند بلوغ سبعة أعوام، وإرسالهم إلى الكتاتيب لحفظ القرءان الكريم، زيادة على تعويدهم الصيام رغم صغر سنهم، فكثيرا ما ترى الصبي صائما مثل والده في شهر رمضان، الأمر الذي رأى فيه بيل مبالغة لأن الشريعة تبيح لهؤلاء الصبية الإفطار.

لم يخف على بيل انتشار التصوف في تلمسان على اعتبار أنه امتداد للفترات السابقة، لذا فقد لاحظ انتساب الكثير من التلمسانيين بما فيهم العنصر النسوي لطرق مختلفة، كالقادرية، والطيبية، والدرقاوية، والتيجانية والكرزازية.[24]

بعد هذا ينتقل ألفريد بيل **Alfred Bel** للتحدث عن الاحتفالات والمناسبات ذات الطابع الديني في المجتمع التلمساني ويقسمها إلى احتفالات عامة واحتفالات خاصة، فالنسبة للأولى يذكر مناسبة عاشوراء التي تكون كل عام في اليوم العاشر من شهر محرم حيث يمثل هذا اليوم ذكرى وفاة الحسين بن علي في موقعة كربلاء، ومن جملة ما يقوم به التلمسانيون في هذا اليوم تقديم الصدقات للفقراء، ومن التلمسانيين من يقدم في هذا اليوم على ختان أطفاله.

أما فيما يتعلق ببعض المعتقدات المرتبطة بيوم عاشوراء، نجد استعمال التلمسانيين للحناء مع قراءة بعض التعاويذ عليها وهذا للاحتراز من الجن، كما كان الحدادون في المدينة يوزعون على السكان خواتم نحاسية بالمجان يعتقد السكان بشأنها أنها تحميهم من العين.[25]

ثم يعرج بعدها بيل الى ذكر الاحتفال بالمولد النبوي وما يرتبط به من ممارسات، فالزوايا ومريدوها يحيون تلك الليلة بالمديح النبوي، بعد تناول وجبة العشاء في الزاوية، ويقضي الأطفال يومهم في اللعب والجري في الأحياء منشدين: **المولود... المولود...مولود النبي**

المنارة للاستشارات

ويعتبر المولد النبوي فرصة لإطعام الطعام والقيام بالصدقات، وبخصوص العلاقات الأسرية ولا سيما الخطيبين، ترسل عائلة الزوج لعروسها الملابس والهدايا وبعض المجوهرات.

يواصل ألفريد بيل **Alfred Bel** حديثه عن المناسبات الدينية، وينتقل بنا هذه المرة إلى عيد الفطر وكيفية استقباله واجواءه في المجتمع التلمساني، حيث يشير إلى استمرار العيد ثلاثة أيام، يمتاز اليوم الأول بتأدية صلاة العيد على الساعة الثامنة صباحا، وبعدها يشرع الناس في زيارة أقاربهم مرتدين أحسن ملابسهم، وتكون النسوة في المنازل قد أعددن الحلويات لمثل هذه الاستقبالات والزيارات المتبادلة، أما اليوم الثاني فيتجه الناس إلى المقابر، كما يتجه أتباع الطرق الصوفية في تلمسان إلى ضريح الشيخ أبو مدين بالعباد، وقد وصف هذه الزيارات بالحج لكثرة الوافدين، والأمر نفسه بالنسبة لليوم الثالث، حيث يتوجه أصحاب الطرق الصوفية إلى قرية عين الحوت التي تقع شمال تلمسان لزيارة المرابطين.

بعد عيد الفطر يأتي عيد الأضحى الذي يستمر هو الآخر ثلاثة أيام، ففي اليوم تقام الصلاة صباحا على الساعة الثامنة، وعقب الصلاة يقدم الإمام على نحر أضحيته، ليكون الأمر بمثابة التصريح للمصلين بالنحر وإقامة شعيرتهم، ويمثل النحر عملا يتقرب به إلى الله، كما يتم تقسيم لحم الأضحية فمنها ما يأكل، ومنها ما يتصدق به ومنها ما يتم تخزينه للأكل في مناسبات أخرى على غرار عاشوراء[26].

3.4 بني سنوس ومساجدها في بداية القرن العشرين

على الرغم من أن هذا العمل يأخذ طابعا أثريا يرتبط بالمساجد وهندستها المعمارية إلا أنه لا يخلو من إشارات حول المجتمع السنوسي القبلي، وهو ما يؤكد منهجية ألفريد بيل **Alfred Bel** في دراسته، فلكي تكتمل صورة الدراسة تحدث عن خصوصية هذا المجتمع ونمط معيشته.

فبخصوص الحياة الدينية يشير بيل إلى تدين ساكنة بني سنوس، الأمر الذي يؤكده اعتناء هؤلاء بمساجدهم والانفاق عليها رغم فقرهم وحاجتهم، كما ينفقون على الأئمة

المنارة للاستشارات

والمؤذنين وطلبة القرءان في الكتاتيب[27] زيادة على تحدثه حول ما يتعلق بنمط معيشة سكان بني سنوس، فجغرافية المنطقة فرضت عليهم النمط الزراعي حيث يشتغل هؤلاء في الحقول والبساتين، وتلعب المرأة دورا مهما في هذه الأنشطة رفقة الرجل لاسيما في قرية الخميس[28].

من المعلومات التي تتعلق بالتركيبة الاجتماعية في قرية الثلاثا هي وجود تركيبة يهودية تعيش وسط المسلمين تعيش على التجارة وتحتكر صناعة برادع الحمير والبغال، وتعد السوق الأسبوعية المنعقدة في قرية الخميس فضاء يلتقي فيه سكان هذه القبائل لقضاء حوائجهم، كما أن كثيرا من المنتوجات يتم نقلها إلى مدينة تلمسان[29]، وقد ساعد قرب بيل **Alfred Bel** من الإدارة الفرنسية على تقديم أرقام عن سكان كل قرية وعدد بيوتها.

5. جوانب من العمران في تلمسان

1.5 ملاحظة حول نقيشة في جسر نقريبه عام 1846

لقد عملت الإدارة الفرنسية في الجزائر عقب إخضاعها للمدن على إجراء تغييرات على مستوى العمران تشتمل تهيأت المرافق العامة، وتشييد الطرق، وبناء الجسور، ضمن إطار الفرنسة وتمهيدا لتشجيع الاستيطان واستقطاب الكولون، وبناء على هذا لم تشذ مدينة تلمسان عن هذه القاعدة، ففي إطار الخرجات والأبحاث الميدانية لألفريد بيل **Alfred Bel** عثر على كتابة تذكارية تتعلق بالجسر الذي أنشأته الإدارة الفرنسية عام 1846م والذي يقع بالقرب من الطريق الرابط بين تلمسان ووهران، حيث يحمل اسم الجنرال نبيقرييه.

تعود هذه الكتابة الى صاحبها حمادي بن الصقال[30] قايد تلمسان في تلك الفترة، في هذه الكتابة يؤكد صاحبها ولاءه للإدارة الفرنسية من خلال الإشادة بالشخصيات الفرنسية وعلى رأسها الملك الفرنسي لويس فيليب **Louis Filipe** الذي يصفه بالسلطان المعظم مالك الجيوش القوية والأقاليم الفرنسوية، ويثني على المنشآت الفرنسية في تلمسان ونواحيها التي أمر ببنائها هذا الملك، زيادة على هذا فقد كان كل من الجنرالات الفرنسيين بيجو **Bugeaud** ولامورسيير **Lamoricière**، وكافينياك **Cavaignac** محل ثناءه،

المنارة للاستشارات

حيث وصفهم بالشجاعة والسياسة وحسن السيرة والتدبير[31] وبخصوص هذه الكتابة فقد قام ألفريد بيل **Alfred Bel** بالتعليق عليها وهذا بتوضيح الأخطاء اللغوية فيها وهو دليل على إتقانه للغة العربية، حيث ذكر 18 خطأ لغويا للقايد حمادي بن الصقال، فضلا عن هذا عمل بيل على ترجمة هذه الكتابة الى الفرنسية.

2.5 بني سنوس ومساجدها في بداية القرن العشرين

من المظاهر التي تعكس حضارة تلمسان وتراثها الثقافي اللّامادي، هو ذلك الطابع العمراني المتنوع بتنوع الثقافات التي احتضنتها تلمسان، زيادة على الطابع المغاربي المحلي لتبقى هذه الآثار شاهدة على التلاقح الثقافي عبر العصور، تأتي دراسة ألفريد بيل **Alfred Bel** لمساجد بني سنوس في إطار دراساته الميدانية، حيث كلفته مصلحة الآثار التاريخية عام 1920م بمعاينة هذه المساجد قصد الوقوف على طابعها العمراني وإبراز قيمتها من جهة، ومحاولة تصنيفها وإضفاء الطابع الرسمي عليها من جهة أخرى، وبناء على هذا قدم لنا في دراسته هذه وصفا لأربعة مساجد في قرى بني سنوس على النحو التالي:

مسجد قرية تافسرة[32] مسجد قرية الثلاثا[33] مسجد قرية الخميس[34] مسجد قرية بني عشير[35] جاء هذا الوصف ليحدد خصوصيات كل مسجد، وهو على العموم يشمل ذكر قاعات الصلاة، الصوامع، الأسوار، ذكر الأسقف والجدران، الأبعاد، جوانب من الزخرفة، كما أردف ألفريد يل **Alfred Bel** دراسته بثمانية ملاحق تتعلق بمخططات هذه المساجد.

بالرغم من هذه الدراسة الميدانية، إلا أن ألفريد بيل **Alfred Bel** أنه لم يصل إلى تاريخ تأسيس هذه المساجد بصورة دقيقة، لعدم وجود معلومات تقدمها النقوش، أو النصوص التاريخية[36].

6. خاتمة

المنارة للاستشارات

من خلال ما تم عرضه تتضح لنا مساهمة ألفريد بيل في إثراء المدرسة الاستشراقية الفرنسية بإنتاج علمي وفير أخذت تلمسان جزءا كبيرا منه، ليتصدر قائمة أبرز المستشرقين في منتصف القرن العشرين نظير تلك المجهودات فزيادة على طبيعة تكوينه المعرفي والمنهجي كمستشرق، استغل إقامته بتلمسان وإدارته لمدرستها ثلاثة عقود في تكوين علاقات مختلفة مع طلبته وزملائه المستشرقين، مكنته من الاطلاع على التراث الثقافي المادي واللامادي للمنطقة انطلق منه في كتاباته، وللإشارة فإن ما كتبناه في هذه الصفحات يبقى مجرد مقتطفات، ورصد سطحي لأعمال هذا المستشرق، على اعتبار أننا لم نتطرق لها كلها وبالرغم من كثرة أعماله لم تخصص لها دراسة شاملة ونقدية تقف على قيمتها، وتوظفها في مجالات مختلفة.

7. قائمة المراجع

الكتب

ألفريد بيل: بني سنوس ومساجدها في بداية القرن العشرين، تقديم وتعريب: محمد حمداوي، موفم للنشر، الجزائر، دط،2011.

ألفريد بيل: بعض طقوس الاستمطار عند أبّان الجفاف لدى المغاربيين، ترجمة: سمير آيت أومغار، دط، منشورات الزمن، المغرب، 2014.

أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج6، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1998، ص 59.

عبد الحميد حاجيات: مقدمة تحقيق بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج1، ط خ، دار عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر 2011.

جوزيف ديسبارمي: الفوايد في العوايد والقواعد والعقايد، دط، مطبعة موقان، الجزائر، 1905.

المقالات

حنيفي هلايلي: المستعربون الفرنسيون في مدرسة تلمسان الرسمية ما بين 1850-1962 دراسة في المسارات والتوجهات الاستعمارية والاستشراقية، مجلة الحوار المتوسطي، المجلد 12، العدد 13، مخبر البحوث والدراسات الاستشراقية في حضارة المغرب الإسلامي، جامعة سيدي بلعباس، 2017.

محمود آغا بوعياد: من آثارنا المغمورة بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، مجلة الأصالة، العدد 13، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، 1973.

المنارة للاستشارات

Alfred Bel: Note sur une inscription de 1846 figurant sur le Pont de Négrier (Tlemcen), Revue Africaine, volume 55, 1911.

Alfred Bel: la population Musulmane de Tlemcen, Revue des études ethnographiques et sociologiques, libraire Paul Geuthener, Paris, 1908
Probst Biraben: les rites d obtention la pluie dans la province de Constantine, in journal de la Société des Africanists, tome 2, 1932.
Georges Marçais: Alfred Bel (1873-1945), Revue Africain, volume 89, 1945
Emile Janier : Bibliographie des publications qui ont été faite sur Telemen et sa region Revue Africaine, volume93, 1949
Emile Janier: Supplements a la Bibliographie des publications qui ont été faite sur Tlemcen et ces environs, Revue Africaine, volume 95, 1951.

8. هوامش:

[1] للاطلاع أكثر حول حياة المستشرقين الفرنسيين وأعمالهم في الجزائر أنظر:
أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج6، ط1، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط1، 1998، ص – ص 9-79.

[2] Emile Janier : Bibliographie des publications qui ont été faites sur Telemen et sa region Revue Africaine, volume93, 1949, p-p 314-334.
[3] Emile Janier: Suppléments a la Bibliographie des publications qui ont été faite sur Tlemcen et ces environs, Revue Africain, volume 95, 1951, p-p 401-412.
[4] Georges Marçais: Alfred Bel (1873-1945), Revue Africain, volume 89, 1945, p-p 103-105.

المنارة للاستشارات

[5] حنيفي هلايلي: **المستعربون الفرنسيون في مدرسة تلمسان الرسمية ما بين 1850–1962 دراسة في المسارات والتوجهات الاستعمارية والاستشراقية، مجلة الحوار المتوسطي**، المجلد 12، العدد 13، مخبر البحوث والدراسات الاستشراقية في حضارة المغرب الإسلامي، جامعة سيدي بلعباس، 2017، ص 51.

[6] Georges Marçais: **op, cit**, p 106.
[7] Ibid, p 109.
[8] Emile Janier: travaux de M. Alfred Bel correspondent de l'institut (14 Mai 1873-18 Février 1945), Revue Africaine, volume 89, 1945, p-p 110-116.

[9] أبو القاسم سعد الله: **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج6، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1998، ص 59.

[10] نفسه، ص 47.

[11] محمود آغا بوعياد: من آثارنا المغمورة بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، مجلة الأصالة، العدد 13، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، 1973 ص 219.
عبد الحميد حاجيات: **مقدمة تحقيق بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، ج1، ط خ، دار عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر 2011، ص 56.

[12] أبو القاسم سعد الله: **المرجع السابق**، ص 61.

[13] عبد الحميد حاجيات: **المرجع السابق**، ص 58.

[14] جوزيف ديسبارمي: **الفوايد في العوايد والقواعد والعقايد**، دط، مطبعة موقان، الجزائر، 1905، ص 17.

[15] ألفريد بيل: **بعض طقوس الاستمطار عند أبّان الجفاف لدى المغاربيين**، ترجمة: سمير آيت أومغار، دط، منشورات الزمن، المغرب، 2014، ص 63 – 64.

[16] نفسه، ص 75.

المنارة للاستشارات

[17] نفسه، ص 77- 78.

[18] نفسه، ص 107.

[19] ألفريد بيل: **المصدر السابق**، ص 72.

[20] نفسه، ص 76.

[21] Probst Biraben: les rites d obtention la pluie dans la province de Constantine, in journal de la Société des Africanists, tome 2, 1932, p-p 95-102.
[22] Alfred Bel: la population Musulmane de Telemen, Revue des études ethnographiques et sociologiques, libraire Paul Geuthener, Paris, 1908, p 201-202.
[23] Ibid, p 203.
[24] Ibid, p 203.
[25] Ibid, p 203-204
[26] Ibid, p 207.
[27] Ibid, p 209-210.

[28] ألفريد بيل: **بني سنوس ومساجدها في بداية القرن العشرين**، تقديم وتعريب: محمد حمداوي، موفم للنشر، الجزائر، دط،2011، ص 54.

[29] نفسه، ص 84.

[30] كاين قايدا على تلمسان منذ دخول كلوزيل عام 1836، للاطلاع أكثر على قياد تلمسان راجع:

آمال هاشمي: **دور الإدارة الفرنسية في تلمسان وضواحيها ما بين 1842–1897**، أطروحة دكتوراه، قسم الحضارة الإسلامية، جامعة أحمد بن بلة وهران، 2017–2018، ص- ص 60-65.

المنارة للاستشارات

[31] Alfred Bel: Note sur une inscription de 1846 figurant sur le Pont de Négrier (Telemen), Revue Africaine, volume 55, 1911, p-p 164-166.

[32] ألفريد بيل: **بني سنوس ومساجدها في بداية القرن العشرين، المصدر السابق**، ص- ص 63-73.

[33] نفسه، ص – ص 76-82.

[34] نفسه، ص – ص 86-90.

[35] نفسه، ص – ص 92-95.

[36] نفسه، ص 95.

المنارة للاستشارات